مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2024 المجلد: 07 العدد: 02 ص.ص: 830-844

بنية الشخصية في المقامة –شخصية البطل في المقامة الجرجانية لبديع الزمان الهمداني أنموذجا–

The structure of the character in Maqamat - the character of the hero in Al-Maqamat al-Jurjaniya by Badi' al-Zaman al-Hamdani as an example

طارق العايب[1*]، جامعة محمد الصديق بن يحي –جيجل– الجزائر.

tariq.laib@univ-jijel.dz

مخبر اللغة وتحليل الخطاب.

عبد الحميد بوكعباش[2] جامعة محمد الصديق بن يحي –جيجل– الجزائر.

bhamid18@gmail.com

مخبر اللغة وتحليل الخطاب.

تاريخ إرسال المقال: 05-08-2024 .تاريخ قبول المقال: 25-11-2024

الملخص: المقامة من الفنون الأدبية النثرية ذات النمط السردي، وهي متجذرة في التراث الأدبي العربي؛ إذ تعود أصولها إلى حقب زمنية تسبق عصر الهمداني، إلا أنّ التبلور الحقيقي لها كان زمن بديع الزمان، هذا الأخير حدد معالم هذا الفن الأدبي وبرع فيه براعة فائقة، فهو الذي بيّن أنّ المقامة تتضمن ظواهر اجتماعية سادت في العهد العباسي متمثلة في الكدية والاحتيال التي يقوم بها أفراد معينون من أجل سد حاجاتهم التي تكون في أغلب الأحيان طعاما، وبطل هذه الكدية يمتاز ببلاغة كلامه وقوة التأثير به على ضحاياه مستخدما حججا متنوعة، متقمصا شخصيات عدة تتنوع حسب الموقف والأغراض وطبيعة الأشخاص الذين يتعامل معهم، فشكلت هذه المعطيات مجلسا مقاميا متعدد الأبعاد.

الكلمات المفتاحية: المقامة، الشخصية، البطل المكدي، أبعاد الشخصية.

Abstract: Maqama is one of the prose literary arts with a narrative style, and it is rooted in the Arab literary heritage. Its origins go back to periods of time that preceded the era of Al-Hamdani, but its true crystallization was in the time of Badi' Al-Zaman, the latter of whom defined the features of this literary art and excelled in it with great skill. It contains certain individuals in order to satisfy their needs, which are often food. The hero of this ploy is distinguished by the eloquence of his words and the power of his influence on his victims, using various arguments, assuming several personalities that vary according to the situation, purposes, and nature of the people with whom he deals. These data formed a multi-dimensional shrine council

Keywords: stature, personality, sublime hero, personality dimensions

* طارق العايب.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2024 المجلد: 07 العدد: 02 ص.ص: 830-844

مقدمة:

الأنواع الأدبية في تطور دائم وتجدد مستمر، فكل نمط منها له بداية كانت قاعدة له، وتكون له نهاية يؤول إليها بشكل محتوم، نتيجة استفائه مهمته واستهلاكه لزمنه، ولاشك أن لنظرية تطور الأنواع الأدبية رأي وكلام في هذا، ففي الأدب العربي مثلا، عُرِف الشعر أولا، ومثل ديوان العرب الذي اعُتبر كسجل الأحداث منذ العصر الجاهلي، لكن مع تقدم الزمن وتنوع الأحداث، تسارع نمو الأنواع الموجودة، وبزغ فجر الأنواع غير المعهودة ولعل أبرز ما برز نجمه في العصور الأدبية العربية القديمة هو المقامة التي ألقت بظلالها على سنوات العهد العباسي وأدبائه، فقد ابتكرها أو بالأحرى أكمل شروط نضجها بديع الزمان الهمداني وأخرجها إلى العيان والأسماع، بعد أن صفَّ مكوناتها بشكل متناسق الأجزاء والأرجاء، واضعا المجتمع وأفراده في خضم أحداث هذا النوع الأدبي السردي، من خلال فكرة "المكدي" الذي يحتال على من يصلحون لانطواء حيله عليهم، إذ فَعَلَ ما فعل أبو الفتح الإسكندري بضحاياه أمام احتيالاته وما هذه الفكرة إلا صورة شاملة لطائفة اجتماعية عاشت وسط شرائح مجتمع بني العباس،الذي حَفِل بكل أنواع وطبائع الناس، ومن هذه الأفكار استمدت المقامة خصائصها وصفاتها، ومن نشاط شخصياتها بلورت أحداثها، وهذا ما حاولنا توضيحه من خلال حديثنا عن بطل المقامة وبنية شخصيته متخذين من المقامة الجرجانية عند بديع الزمان الهمداني أنموذجا للدراسة، هادفين من وراء ذلك إلى التعريف بالمقامة وبيان خصائصها، إضافة إلى استكشاف الأبعاد المختلفة لشخصية البطل، فحاولنا بهذا إيجاد جواب لإشكال: ماهي المقامة وأبعاد شخصيتها البطلة؟ معتمدين في ذلك على المنهج الوصفي سبيلا للدراسة.

المبحث الأول: المقامة والشخصية:

يعالج هذا المبحث مفهوم المقامة كما هومتداول لدى العلماء والباحثين، وهو يرصد هذا المفهوم في جانبين اثنين هما: اللغوي (بالاعتماد على المعاجم اللغوية) والاصطلاحي (في ضوء ما تم طرحه من قبل الباحثين)، كما يتطرق إلى مفهوم الشخصية لغة واصطلاحا، إضافة إلى مدى حضور الشخصية في المقامة والخصائص المميزة لهذه الأخيرة.

المطلب الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي للمقامة:

يتناول هذا المطلب المفهوم اللغوي للمقامة كما ورد في معاجم اللغة العربية، ويعمل من ثم على الخروج بمعنى واضح كما جاء به ابن منظور في معجمه، كما يتبع بإيراد مفاهيم اصطلاحية ضبطت هذا النمط السردي في تعريفات جامعة.

أولا: المفهوم اللغوي: يوجد مفهوم المقامة اللغوي في المعاجم العربية، منها ما ورد في معجم لسان العرب لابن منظور فقال: "المقام: موضع القدمين... والمُقَامُ والمُقَامَةُ: الموضع الذي تقيم فيه. والمُقَامَةُ، بالضم؛ الإقامة. والمَقامة، بالفتح: المجلس والجماعة من الناس... والمقام والمقامة: المجلس، ومقامات الناس: مجالسُهم...

والجمع مقامات.... ومقامات الناس: مجالسهم أيضا، والمقامة والمقام: الموقع الذين تقوم فيه، والمقامة: السادة"[1].

ارتكز معنى المقامة اللغوي حسب ما جاء في لسان العرب لابن منظور، على الموضع الذي تكون فيه القدمان والمجلس الذي يضم جماعة من الناس، وكذلك أشراف من القوم.

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي:

المقامة هي الفن الضارب في جذور الأدب العربي، هي ذلك الفن القديم إذا قورن بهذا العصر، والجديد إذا عدنا إلى زمنه– زمن بني العباس–، فالمقامة هي ثمرة التعقل والموضوعية، التي انزاح إليها أدباء العصور المتأخرة قديما، فبفعل التأثر بما أنجزه الجيران وكذا الدعوة إلى استخدام العقل التي نادى بها القرآن الكريم، والتطور النسبي في وسائل الكتابة، بالمقارنة مع السابق، فإنّ المقامة هي نتيجة الاجتهادات التي قام بها أصحاب الفنون وزعماء الكلم الأدبي، فالمقامة إذن هي المحصلة التي لطالما انتظرها رواد الفن ومتذوقوه، إنها ذلك الانجاز غير المسبوق في أدبنا العربي، والمحفز على إبداع فنون أخرى "فإذا انتهى بنا المطاف، إلى يوم الناس هذا، ورأينا الكتاب يقطبون للمقامات، حسن أن نلتفت إلى قيمة هذا الأدب التاريخي"[2]. الذي نال من الحظوة ما يكفي ليتخطى السنوات إلى الحاضر.

فهو لب القصة وقلب السرد، ومحرك الحكي بفعل ما احتواه من حبكات وشخصيات، وحوارات، وعقد، تنتهي بحلول مرضية لصاحب الشخصية الأقوى في حكاية المقامة.

1– ابن منظور، لسان العرب، ج11، ضبط نصه وعلق حواشيه: خالد رشيد القاضي، ط1، دار صبح، إديسوفت، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، 2006، (مادة قوم)، ص 324–330.

2–سلطان محمد جميل، فن القصة والمقامة، دط، منشورات جمعية التمدن الإسلامي، 1943، ص55

وفوق هذا كله فإن المقامة تحتوي على أفنانين القول بما يمتع القارئ والسامع، وما يغذي الفكر الضيق والواسع، ويستجلب قليل العلم وكثير العلم والنعم، لذلك **فمن الواجب علينا أن نهتم بفن المقامة بعد سنين طويلة من الإهمال الذي طالها**[1].

ذلك لما للمقامة من فخامة تاريخية، فنية، لغوية، وأدبية، إذ تعد من أبرز ما اكتشف من درر الفن والأدب عند العرب، فالمقامة جاءت بذلك لتقول كلمتها إلى جانب الفنون الأدبية العربية الأخرى.

ولعل لفظة المقامة كغيرها من الألفاظ لها مدلول اصطلاحي يدل عليها، ويحددها ويبين ما فيها من معاني ومدلولات، ولا شك أنّ المقامة في تركيبها الصوتي توحي إلى ما تجرنا إليه من معاني، أو بالأحرى تومئ إلى محتواها اللغوي والصوتي والوظيفي، وبالتالي يمكن أخذ معان عدة لهذا المصطلح فمثلا: "حينما بسط الإسلام ظلاله في مشارق الأرض ومغاربها، زمن الراشدين والأمويين وصدر العباسيين، ظلت المقامة اسما للمجلس والمجتمع، يستمع فيه الخليفة إلى الزهدة الصالحين؛ أولئك الذين لم يكونوا يطمعون بغير تنبيه الغافلين وإرشاد المسترشدين"[2].

يعني أن المقامة أخذت معنى يتعلق بالمجلس الذي يضم الخلفية ومن حوله من زاهدين ومتقين، يتبادلون النصح والإرشاد لمن يطلب ذلك ومن لا يطلب، فجمعت تلك الجلسات في حد اصطلاحي هو "المقامة" ويمكن اختصارها بالقول: إنها جلوس الزهاد والناصحين مع الخليفة من أجل تقديم النصح للخلق وتنويرهم، **وبمجرد حلول القرن الثالث الهجري عرف معنى المقامة تنوعا وتطورا ملحوظين؛ إذ أصبح منفتحا على فنون شتى، منها القصة التي تتضمن الشعر والمثل والحكم، كما تتحدث عن الوقائع الحربية، وهذا كله موشى بالثقافة العربية الإسلامية**[3].

إذ طال مصطلح المقامة تطور تماشى مع روح العصر الذي يعيش فيه، فمن المعروف أن ذلك القرن هو قرن الاكتمال الفني لفن المقامة، إذ تمكن خلاله الأدباء الذين عنوا بهذا النمط الأدبي من أن ينتجوا قالبا نثريا يسمى المقامة، وهو وعاء يحمل من الكلام ما كثر لونه وتنوعت مشاربه ويحفل بالأنواع الأدبية وما تعددت أنماطه وأشكاله، فكما حملت المقامة في طياتها، اللغة، حملت الاجتماع وكما تضمنت الشعر، احتوت المثل، فصاحب المقامة يدأب على إغناء مقامته بشتى أنواع المعارف العلمية، والأنواع الأدبية، ما

1- ينظر: كيليطو عبد الفتاح، المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص8.

2- سلطان محمد جميل، فن القصة والمقامة، ص13.

3- ينظر: المرجع السابق، ص 14-15.

يدل على سعة ثقافة الأديب وحسن تعلمه ودقة توظيفه لمعارفه، فإذا كانت المقامة مجلسا يضم أناسا جمعهم موضوع وهدف: فإنّها أيضا نادي أدبي علمي اجتمعت فيه الثقافة والأدب بأنواعهما، وبالتالي فالمقامة هي ذلك النوع الأدبي النثري المتميز بسعة علمها ومعلوماتها وأجناسها الأدبية، يقدمها أديب موسوعي العلم، متمكن من فنون القول الأدبي، وما يتبعه من حسن استغلال لمكوناتها وأركانها، ومنه فالمقامة هي تلك التجربة الأدبية والإنسانية الخاصة.

وتحمل المقامة معان اصطلاحية تركزت حول طبيعتها: "وبديع الزمان هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة، وهي جميعها تصور أحاديث تلقى في جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث"[1].

فأحاديثها كثيرة، جذابة يعلوها جمال لفظي، يشع منه رونق معنوي، يربط بين شخصياتها الكلام وأفانينه، واللغة وشبكاتها، تعمل شخصياتها على إقناع أترابها بالحجة والدليل، **فكان هدف المقامة منذ بدايتها التعليم، وذلك سبب وجيه لتسميتها بالمقامة من طرف الهمداني، ولم يعطها أسماء أخرى على شاكلة القصة والحكاية**[2].

يدور بين شخصياتها التي تحسن أفانين القول، وتتقن أساليب وقواعد اللغة؛ أي أنّها ترتبط بين بعضها البعض بوساطة لغة بليغة، تحترم نحوها وصرفها، هَدَفَ من خلالها مخترعها إلى بث شيء من العلم في عقول سامعيها وقارئيها، بطريقة سهلة في قراءتها، سلسة في قواعدها ومشوقة في أحداثها ووقائعها، فهي سبيل معبد يسلكه الطلاب في طلب العلم والجلاس والباحثون عن حلو السمر والسهر، فمعنى المقامة الاصطلاحي جمع بين الفائدة العلمية ممثلا في أسجاعها وبدائعها ولغتها ومتعة الاجتماع مع الخلان في طرافة أحداثها وشخصياتها وتلك هي المقامة.

المطلب الثاني: مفهوم الشخصية:

يعمل هذا المطلب على إبراز الحدود المعرفية للشخصية كما وضع معالمها المشتغلون في مجال السرد، وذلك من خلال عرض بعض التعريفات الاصطلاحية.

1– ضيف شوقي، فنون الأدب العربي الفن القصصي –المقامة–، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت، ص08.

2– ينظر: المرجع نفسه، ص08.

لكل عمل فني ذي طابع قصصي شخصيات تحرك أحداثه وتنقل أفعاله وتصور تفاعلاته، والشخصية هي كل متحرك بإمكانه أن يؤدي وظيفة ودورا ويظهر تفاعلا مع ما حوله من الشخوص، سواء كانت حقيقية أو متخيلة.

وانطلاقا من كل هذا نستطيع أن نرسم تصورا ذهنيا وأن نضع حدا للشخصية داخل النسيج الفني الحكائي خاصة، فنقول إنّ: "الشخصية هي موضوع القصة السردية"[1]، أي أنّ موضوع العمل السردي هو الشخصية التي تمارسه، وتقوم بما رُسم لها، داخل الشبكة السردية المتكونة من بنيات أخرى، محورها دائما الشخصية التي تعمل وتعيش وتستغل امتيازاتها في إطارها المحدد، ومنه فالشخصية تعد نواة العمل السردي وجوهره، **ونستطيع أن نسمي الشخصية انطلاقا من المميزات التي تمتاز بها وهي التي تترجم في شخصية الفاعل، بغض النظر عن انتظام الصفات من عدمه**[2].

فالشخصية هي الفاعل بشكل عام، ومن غير تجزيء، ولها ميزاتها التي تتحلى بها، تتواقف والوضع داخل السرد أو الحكي؛ وبوجه أكثر دقة، الشخصية هي تلك الكائنات التي تمارس الأفعال وردود الأفعال في ثنايا الحكي، لتربط الشخصية بالفعل والنشاط حتى تبدو أكثر وضوحا.

المطلب الثالث: الشخصية في المقامة:

يتقصى هذا المطلب حضور الشخصية في المقامة، خاصة الشخصية البطلة التي تتمحور حولها أحداث المقامة، إذ تمثل شخصية البطل نموذجا بشريا تقوم بسلوكات تدل على طبائع موجودة في مجتمعها.

المقامة فن نثري، يحكي قصة بطل جرت له أحداث أثناء تنقله في مكان ما، وتحاور مع أشخاص آخرين، في موضوع يحدده صاحب المقامة، وما دامت –المقامة– تعتمد على فنيات السرد، فإنّها بكل تأكيد تحتوي على شخصيات تناسب طبيعتها، فهي تعالج دائما الشرائح الاجتماعية البسيطة، القريبة من الهامش كي تصور لنا حال بعض أنماط البشر، فمثلا "المقامة الخمرية عند بديع الزمان ترينا إلى أي حد بلغ التناقض في حياة الفرد؛ فقد ظهر لنا فيها أنّ إمام المسجد كان إماما أيضا في الفسق والفجور وإدارة الحانات التي تباع فيها المسكرات"[3].

1– تودوروف تزفيطان، مفاهيم سردية، تر: عبد الرحمان مزيان، ط1، منشورات الاختلاف، الغزوات، 2005، ص73.
2– ينظر: المرجع نفسه، ص74.
3– حسن محمد رشدي، أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص16.

إنّ المفارقات الموجودة في شخصية المقامات لأمر يدعو إلى التوقف بتمعن عند هذه الخاصية التي تميز أفراد المقامة، فمن المعروف أنّ الموضوع المقامي بطله مُكدٍ أو محتال، لكن كسر الأفق الذي ساقته بعض الشخصيات جعلت من العقل الناقد والدارس يعدل عن موقفه هذا ونظرته اتجاه شخوص أحداث المقامة، فقد نجد الإمام فاجرا خفية، ونجد الفقير غنيا بعيدا عن أعين الناس، وما هذا إلا توثيق موثوق لطبائع البشر وخفايا نفوسهم، فالغرض يحدد التقنية، والكل يسعى إلى هدف واحد في المقامة، وهو إشباع رغبة النفس في التملك واللذة، وهاتان الصفتان والخصلتان البشريتان البعيدتان عن التعقل، تختزل في أشخاص وأبطال المقامات.

وحري بنا أن ننتبه إلى ناقل الحدث وهو صاحب المقامة الذي يتحدث على لسان البطل الذي كان شاهدا داخليا على ما حصل في رقعة الحدث، فكل أديب مختص بالمقامة، يحكي الحكاية على لسان البطل وهذا البطل يشاهد الأحداث أمامه وساهم في القيام بها، بكل أبعاده، فكل مبدع سمى لنا بطلا رآه مناسبا لمقاماته، يحكي ما جرى له في مسرح المقامة، وللإشارة **فإن بديع الزمان الهمداني هو أول من ابتدع المقامات وسبق إليها لاحقيه، وتبعه الحريري في ذلك مغيرا فقط أسماء شخصياته، ورغم ذلك يبقى بديع الزمان هو أول من وطأ ساحة هذا الفن**[1]، سقنا هذا الحديث للتأكيد على أنّ بديع الزمان هو المبتدع الفعلي للمقامة من جهة، ومن جهة أخرى –وهي الأهم– الكلام عن شخصية البطل الذي يسيطر على المقامة، باعتباره شخصية محورية وراويا في الآن نفسه، إذ أن كل أديب مقامات يختار اسما ينصبه بطلا لمقاماته، يسوق على لسانه أحداث مقاماته الأدبية.

المطلب الرابع: خصائص المقامة:

يستعرض هذا المطلب أهم الميزات الفنية التي ينفرد بها فن المقامة عن غيره من الفنون السردية الأخرى من خصائص تمسّ الشكل والمحتوى معا التي يمكن من خلالها معرفة هذا النوع الأدبي.

المقامة من الفنون النثرية التي نشأت وتبلورت في العصر العباسي، بعد مواتاة الظروف لها، فهي تلك المشاهد التي تنقل وتصور شرائح اجتماعية إما أنّها كانت تسعى للتفوق والغلبة الشخصية من أجل تحقيق هدف محدد، وإما عاشت على الهامش فتعرضت لنوع من الاستغلال من طرف الشخصيات الأخرى.

1– ينظر: عباس حسن فضل، نشأة المقامة في الأدب العربي، دط، دار المعارف، د.ت، ص26، نقلا عن ابن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب، ط1، القاهرة، ص132.

وتتبني المقامة على عناصر داخلة في تكوينها وتميزها عن سائر الفنون، فهي تعنى بفن الكلام نثرا، كما تحتوي على نتف شعرية وحتى على قصائد كاملة، كما يمكن أن يُضمنها صاحبها أمثالا وحكما ومواعظ وأجناسا أدبية أخرى من شأنها أن تعزز مبناها ومعناها، وبالتالي فإنّ المقامة مساحة أدبية يفرغ فيها الأديب مكنوناته الفكرية ورصيده اللغوي، ومخزونه الثقافي، كما ينثر فيها رأيه في القضايا المعالجة، فغالبا ما نجد صاحب المقامة يمرر رسالة، تمثل نظرته للمجتمع أو لأفراده أو لأشياء ومواضيع أخرى.

ومن ذلك فقد اتشحت المقامة بميزات وخصائص جعلت منها ذلك الفن الأدبي النثري الواغل في القلوب والمردد على كل لسان، والمتضمن لكل الأفكار والمناحي الحياتية، ولعل ما يجذب الأنظار أكثر للمقامة هو كونها نسيج لفظي مفعم بالبديع، والزخرف المكمل لمعانيها، ما يجعلها تأسر الأسماع كذلك بحلو أسجاعها وعذب معانيها، وإنّه لمدعاة للانفراد بالجمالية الحقة التي استحوذت عليها المقامة، ومنه فهي أبهى ما يمكن أن تكون عليه الكلمات والحروف فـ "ليست المقامة إذن قصة وإنما هي حديث أدبي بليغ، وهي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة، فليس فيها من القصة إلا ظاهر فقط، أما هي في حقيقتها فحيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة، ومن جهة أخرى على أساليب أنيقة ممتازة. بل إن الحادثة التي تحدث للبطل لا أهمية لها إذ ليست هي الغاية، إنما الغاية التعليم والأسلوب الذي تعرض به الحادثة"[1].

فمن خصائصها إذن أنّها ذات طابع قصصي وكلامها بليغ واحتواؤها على تحايل بعض شخصياتها ونخص بالذكر البطل وإضافة إلى هذا كله فالمقامة لها هدف التعليم إلى جانب الإمتاع والتشويق السردي والحكائي، بل إنّ التعليم من أبرز أهدافها التي تصبو إليها، إذ تحتوي غالبا على عظات وعبر وأمثال وحكم، وكذا ألفاظ وبلاغة تفتح المجال أمام المتعلمين كي ينهلوا منها: **ومن ثم ساد اللفظ على حساب المعنى في المقامة، ذلك أن المعنى بعد خفي، وهو مع ذلك يمثل المحور الرئيس الذي يبنى عليه الهدف التعليمي**[2]، الذي يمثل أساس وجود المقامات المتعددة، وهو ما زاد من قيمتها وأهميتها كفن أدبي نثري هدفه تعليمي، ولعل هذا الفن يسلك أحسن طريق تعليمي يمكن أن يسلكه طلاب العلم والباحثون عن المعرفة الأدبية واللغوية وحتى الدينية والأخلاقية، ويمكن ذلك من خلال استخلاص الدروس والعبر منها: "ومما يجذب عواطفنا إلى المقامات ما نجده فيها من نثر يكاد يقارب الشعر من ناحية التعبير الجميل عن وقع الوجود على الوجدان بلفظ أنيق يدل على معنى نبيل"[3]، يثبت هذا أنّ من خصائص المقامة تشابه نثرها بالشعر، تقديمها بتعبير

1– ضيف شوقي، المقامة، فنون الأدب العربي الفن القصصي، ص9.
2– ينظر: المرجع نفسه، ص9.
3– حسن محمد رشدي، أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة، ص16.

جميل، تأثيرها في العواطف، واستخدامها للألفاظ الجذابة ذات المعاني اللطيفة وتكاد المقامة تنفرد بهذه الخصائص عن سائر الفنون الأدبية نظرا لمرونتها وتلاؤمها مع معظم الفنون الأخرى وتداخلها معها، ومهما يكن من شيء **فللمقامة ركائز أربع؛ أولها عملية الرواية وبطل المقامة، وثانيها التنميق اللفظي الذي يمثل السجع أهم صوره، أما ثالثها فهي الاهتمام بإيجاد حلول للمشاكل المختلفة التي تخص المجتمع (الاقتصادية، العلمية...)، في حين أنّ الركيزة الرابعة تمثل محور الحديث**[1]، وإجمالا هذه هي معظم خصائص وميزات المقامة الشكلية والمضمونية، وهذه هي ركائزها التي تقف عليها في صرح الآداب والفنون بعامة وذلك منذ نشأتها في عصرها الأول.

المبحث الثاني: أبعاد شخصية البطل في المقامة الجرجانية لبديع الزمان الهمداني:

يتحرى هذا المبحث البحث في أبعاد شخصية البطل المقامي في المقامة الجرجانية لبديع الزمان الهمداني، من خلال أبعادها المختلفة (النفسية، الجسمية، الاجتماعية)، قصد معرفة دلالات هذه الأبعاد وما تقدمه للمقامة.

الشخصية من سمات المقامة، وهي من أبرز مكوناتها وعناصرها، فالمقامة عمل سردي شديد الشبه بالقصة، وبالتالي تتمتع بحس سردي عميق، يتجلى ذلك من خلال الأحداث والحوار والزمان والمكان والشخصيات هذه الأخيرة تدور في تلك العناصر السردية السابقة.

ويبدو نشاطها، وتتجلى فعاليتها من خلال تفاعلها باستمرار مع تلك العناصر، فنجد الشخوص يتلونون بلون الزمن الذي يحيون فيه ويتشحون بصفات المكان الذي يتحركون عليه، وتبدو مستوياتهم العقلية وأطرهم النفسية في ثنايا حواراتهم، كما تتضح ردود أفعالهم بجلاء داخل زخم الأحداث التي تقع معهم، والمشهور في فن المقامات أنّها ذات شخصية رئيسية غالبا ما تكون "مكدي (بطل) تدور القصة حول وتنتهي بانتصاره في كل مرة"[2]، وعليه تدور الأحداث وتحصل تبعا لما قام به، فالكدية وما يصاحبها من احتيال وتملق للجالسين في المجلس والضحية تعد بمثابة مثير صدر عن البطل (المكدي)، ويحتم هذا رد فعل غريزي من قبل الضحية التي تعترف بهزيمتها في النهاية بعدما يحصل المحتال على مراده، ومن ثم فالبطل ركيزة الشخوص الأساسية، ثم تأتي بعده الضحية بما تحمله من صفات.

1– ينظر: المرجع نفسه، ص18.

2 – فروخ عمر، الرسائل والمقامات–عبد الحميد الكاتب– بديع الزمان–الحريري– دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط2، منشورات مكتبة منيمنة، بيروت، 1950، ص21.

المطلب الأول: البعد النفسي:

يلقي هذا المطلب الضوء على الجانب النفسي لبطل المقامة باعتباره مكونا أساسيا من مكونات بنية شخصيته، فالناحية النفسية لها تأثير كبير على سلوكات البطل وما يقوم في خضم أحداث المقامة.

يشكل البعد النفسي بخصوصياته جانبا هاما من جوانب الشخصيات في المقامات كما في سائر الأعمال السردية أو ذات الطابع السردي، ومقامات بديع الزمان الهمداني لها من الصفات النفسية ما يجعلها تحمل في طياتها الأوصاف البشرية، خاصة ما تعلق بأغوار النفس الإنسانية، فلو تتبعنا عبارات المقامة الجرجانية وبحثنا عن التركيب السيكولوجي لبطلها "أبو الفتح الإسكندري" لألفيناها مفعمة بما يتصل بشهية الإنسان وحب التملك والتملق، ولصادفتنا مواقف عدة توحي وتدل على الطبيعة الداخلية لبطلها فلما قال الراوي "عيسى بن هشام": "فافتتح الكلام بالسلام، وتحية الإسلام"[1]، من الناحية النفسية هذا الكلام ينم عن الوقار الذي يتمتع به "بطل المقامة" وكذلك الاحترام الذي أبداه للجماعة، وغالبا هذه طريقة المكدين والمحتالين الذين يبدأون كلامهم وسؤالهم بأساليب سلسة تجعل الضحية ينجذب إلى المكدي، فإذا بدأ هذا الأخير بالكلام المحبب للناس على شاكلة تحية الإسلام فإنّه يزرع فيهم نوعا من الطمأنينة إليه وربما يلين جانبهم له، خاصة لما ذكر كلمة "السلام" وهي أجمل تحية تقال.

ولعل ما أكد مكانته المرموقة وحسن صورته لما قال لهؤلاء: "جبت البدو والحضر، وداري ربيعة ومضر، ما هنت، حيث كنت"[2].

زرع المكدي البطل نوعا من الثقة اتجاهه في نفوس القوم، فقد ذكر القبائل العربية وهي: "ربيعة ومضر" وذكر الأماكن التي زارها وختمها بقوله أنه كان يتمتع بحسن الصورة ورفعة المقام حيث قام، وهذا مدعاة للفخر بالنسبة له، وحافز نفسي أرسله للناس الذين يتحدث معهم للإصغاء إليه والاستماع لما سيقول، والاستجابة له من أقصر طريق، ويوحي هذا الكلام الذي جذب به "أبو الفتح الاسكندري" أسماع هؤلاء القوم، بأن هذا البطل – بطل الكدية– له من التجربة الشيء الكثير، اكتسبها عبر الزمن خلال انتقاله في ربوع الأرض وحديثه مع أناس من كل حدب وصوب، ومنه فقد استغل "أبو الفتح" كل مكتسباته النفسية أثناء كديته، إذ أزال الخجل عن وجهه وتحلى بالشجاعة الأدبية الكافية كي يحادث الناس، وجعل هذه الإمكانيات في خدمة احتيالاته الكثيرة، نظرا لكونه يعيش حياته على الاحتيال والاستجداء واستغلال طيبة الناس وغبائهم.

1 – الهمداني بديع الزمان، مقامات بديع الزمان الهمداني، شرح: محمد محمود الرفاعي، ط1، مطبعة السعادة، د.ت، ص32.
2– المصدر نفسه، ص 32.

هذا، وقد صور البطل نفسه، على أنَّ حياته تحولت إلى مآسي، ومعاناة واضطراب نفسي يعلوه الحزن والأسى واليأس وعبر عن ذلك بقوله: "أعاني الفقر. وأماني القفر"[1]، لعل هذه الجملة اختزل بها "أبو الفتح الاسكندري" ما يعيشه حاليا، فالمعاناة لها أكثر من وجه، فهي التفكير في المصير المجهول، نتيجة الجوع وعدم تملك وسائل العيش الكريم، والتفكير الدائم فيما يسد رمقه ورمق عائلته، كما أن الفقر له من الوقع النفسي ما هو أشد من الوقع الجسماني، فعدم الاستقرار الداخلي من شأنه أن يفسد الحياة ويبعد النفس المضطربة عن مباهج الحياة ومتعتها.

أما بالنسبة لأماني القفر، ففقد الأشياء والافتقار لها يجعل الإنسان يعيش فيما يشبه أحلام اليقظة من تمنيات وأماني وأحلام يتضح في النهاية أنها أحلام يقظة لا أكثر، فالبطل صور نفسه كإنسان في أعلى مراتب الفقر والحاجة، ولم يترك فرصة لهؤلاء الناس كي يفكروا في صحة كلامه من عدمه.

ومن خلال هذه النماذج اتضح أن أبا الفتح رجل يحسن الوصف والتحايل والتلاعب بمشاعر المستمعين له والهدف دائما الحصول على مراده.

المطلب الثاني: البعد الجسمي

يركز المطلب الثاني على تبيان الأوصاف الجسمية لبطل المقامة الجرجانية خاصة وأنّ الصفات الجسمانية تؤدي دورا كبيرا في توضيح كثير من اللبس الذي يمكن أن يحصل في العمل المقامي.

غالبا ما مثل البعد الجسمي محور الوصف في العملية السردية داخل النصوص الحكائية والأعمال ذات الطابع القصصي، فالأوصاف الظاهرة تلعب دورا هاما في ترك القارئ يحسن تصور الشخصية ببعدها الجسمي المادي الملموس؛ لأنّ المبدع في هذه الحالة يحاول التوفيق في وضع الأوصاف لشخوصه، وفي المقامة الجرجانية لا حظنا أوصافا مميزة لبطلها "أبو الفتح الاسكندري" الذي نعت بنعوت دلت على شخصيته فقال الراوي: "بينا نحن بجرجان، في مجمع لنا نتحدث وما فينا إلا منا، إذ وقف علينا رجل ليس بالطويل المتمدد، ولا القصير المتردد، كث العثنون"[2].

هذه الأوصاف الخارجية تدل على أن البطل هنا له هيئة مقبولة، فهو رجل لا بالطويل ولا بالقصير، وله لحية كثيفة وهذه السمات الجسمانية ساعدته على الانخراط في مجتمع تلك المدينة بسهولة، فلا شيء ميزه عن غيره، ليجعله محط أنظار الناظرين، فهو معتدل الطول والقصر، وهنا يمنح له المجال كي يذوب في

1–المصدر السابق، ص 33.

2 –المصدر السابق نفسه، ص32.

المجتمع الذي يوجد فيه، ليوحي بسهولة ممارسة ألاعبيه في الاحتيال والاكتداء بسهولة، دونما ريب أو شك من الناس.

وحاول البطل الظهور بصورة تدعو إلى الاعتزاز والفخر فقال في هذا البيت الشعري:

"وفينا مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل"[1].

نعت نفسه ومعه عشيرته بالحسن والبهاء، وحسن الوجه أدل دليل على الحسن كله، وجعل يشد انتباه الرجال الذين معه بقوله لهذا البيت الدال على البهاء والحسن والجمال الذي يتمتع به هو وقومه، ويبدو أن البطل "أبو الفتح الاسكندري"، برع في تصويره هذا خاصة لما ساقه في شكل بيت شعري متناسق الأجزاء، إضافة إلى هذا فإنّ الشعر من أشد الفنون جذبا للأسماع والنفوس، إذ عول على قيمة فنية في الشعر، خاصة إذا علمنا أن مجتمع تلك العصور ينجذب بسهولة إلى الشعر وما يرد فيه من معان ويتأثر بما يقع فيه من أوصاف، وهذا يدل على الذكاء في شرح الحال، والمهارة في استغلال الموقف لصالحه، وذلك من خلال بعض العناصر أهمها: استخدامه الشعر وإسماعه لجماعة من الناس دفعة واحدة ونثره صفة الحسن في شعره.

وما زاد من دقة تصويره لحالته هو قوله: "وقد هبت بي إليكم ريح الاحتياج. ونسيم الإلفاج. فانظروا رحمكم الله لنقض من الانقاض مهزول"[2].

كلام "أبي الفتح الاسكندري" في هذه الجمل ينم عن تأثر جسمه بما آلت إليه ظروفه، ففى قوله هذا دلالة على نحافة جسمه وخفته نتيجة للجوع وقلة الطعام، كما يدل أيضا على أنّه من شدة نحافة تلاعب به النسيم رغم كون النسيم خفيفا، أما الجزء الأخير من كلامه دليل واضح على الوضع الذي أصبح فيه "أبو الفتح" بعد طول جوعه وشدة احتياجه وتفاقم وضعه ما أدى إلى ضعفه وهزاله، وهو في هذا أتقن ممارسة لعبة الاستعطاف والاستجداء من خلال تصويره المؤثر لجسمه قصد الوصول إلى هدفه.

المطلب الثالث: البعد الاجتماعي

يتقصى هذا المطلب أثر الصفات الاجتماعية التي يتحلى بها البطل وكيفية إلقائها بظلالها على تصرفاته داخل مجتمعه، إذ غالبا ما تتلون شخصية البطل بألوان أحواله الاجتماعية المختلفة، كما تطبع عليه الطبائع السائدة في ذلك المجتمع.

1 –المصدرنفسه، ص33.

2– المصدر نفسه، ص35.

تدور الشخوص في مجتمعها الذي تعيش فيه وتعايشه، وأشخاص المقامة تتميز بالانسجام مع مجتمعها، خاصة البطل؛ أو بالأحرى فهي تنسق معه في شكل ثنائيات ضدية، فالمجتمع الغني يكسره متطفل يدعي الفقر، والمجتمع متزن العقل يعاكسه محتال متذاكي، وهو ما نجده في مجتمع المقامة الجرجانية، فبينما كان الناس منشغلين بحديثهم، يخرج لهم رجل يدعي الحاجة والفاقة، يسأل حاجته، يوهم الناس أنّه من أفقرهم وأحوجهم، وتفنن في تمثيل هذا الدور خاصة لما جاء "يعلوه روع صفار في أطمار"[1]، فهو يجر جوعه كأنه يعاني مجاعة دون غيره، ويبحث عن مساعد، ليطفئ حاجته، فقد أظهر الصفار ليوهم الكبار، وما يريد من ذلك سوى الانتصار، إنّه يرسم لنا بهذا الموقف صورة مجتمع سهل النيل منه، مجتمع يعصره الغباء، وتعتريه الشفقة على مثل هذه الأنواع البشرية المحتالة، فهم لم يسألوه سؤالا ولم يطمعوا في جواب، بل راحوا ينصتون ويصغون له باهتمام كامل، وعطف متساهل، فتلاءم المجتمع مع تفكير الرجل ودليل ذلك: "وأولياناه جزيلا، فقال: يا قوم إني امرؤ من أهل الإسكندرية، من الثغور الأموية، نمتني سليم ورحبت بي عبس"[2]. إذ ضربهم المكدي في الصميم بعدما اهتموا لأمره، فهو اسكندري، ثم ذكر أن سليم وعبس أكرموه وأعانوه وأعطوه حق الضيافة، أراد القول فما عليكم أنتم إلا الحذو وحذو سابقيكم ولا داعي لمخالفتهم، خاصة وأنّ الكرم من أهم الصفات والأخلاق الحميدة التي يتمتع بها مجتمع البطل، وهذا من الفخاخ التي نصبها المكدي لذلك المجتمع، فقد ضربه في صميم أخلاقه فالكرم سمة الشرفاء، فلا مهرب منها، أما البخل فسمة الأذلاء فما من سبيل للتحلي بها، وبالتالي فذكاء المكدي هنا تجلى بصورة جلية، إذ من غير الممكن أن يرفض القوم إكرامه وإطعامه، فحدة اللسان لا ينجو منها أحد، إذا وجدت الفرصة، استغلتها كما يجب، ضف إلى ذلك أن البطل أراد أن يباري بين مجتمعات القبائل المذكورة و مجتمع جرجان، ولا أحد يود الخسارة خاصة إذا تعلق الأمر بالكرم فهو ذروة شرف القبيلة ومجتمعها.

فنفهم أنّ الجانب الاجتماعي للبطل وحنكته في الكدية قاداه إلى مقارنة المجتمعات، ومن دلائل انتمائه للطبقات الاجتماعية الفقيرة قوله: "**فأصبح وأمسي أنقى من الراحة وأعزى من صفحة الوليد. وأصبحت فارغ الفناء. صفر الإناء**"[3].

هذا وصف دقيق، شامل للوضع المادي للبطل فهو لا يملك حتى قوت يومه ولا يوجد شيء في بيته، وهن اكتمل شرح الحال وتفصيل المآل، "فأبو الفتح" صال وجال في الأرض وانتهى به المطاف في جرجان،

1–المصدر السابق نفسه، ص 32.
2–المصدر نفسه، ص 32.
3–المصدر السابق نفسه، ص33.

وذكرهم بإكرام عبس وسليم، وأنه لا يملك ما يسكت بطنه، وما عليهم سوى الإذعان لمطلبه والخضوع لرجائه، "فأبو الفتح الاسكندري" ساق كلامه في مواقعه مرتبا منظما، مسقطا حيله على عقول ذلك القوم، موظفا عاطفته المليئة بالحنين لصالحه، من أجل النيل منهم وأخذ حاجته وما يريد فكان شديد الذكاء في مجتمع شديد العطف وكان حاد اللسان في مجتمع لم يتحدثوا بقدر ما سمعوا، وكان بارع التخييل في مجتمع أحسن المشاهدة والتخيل، فما كان منهم سوى الخضوع لرغبته وإشباع وإسكات غريزته.

خاتمة:

بعد رحلتنا العلمية في ربوع العصر العباسي وبالضبط في جناح المقامة، وبعد تحليلنا لنموذج عن مقامات الهمداني توصلنا إلى جملة نتائج يمكن إجمالها في الآتي:

– المقامة لها معان لغوية تمثلت في أغلب الأحيان في مكان ومحل الإقامة والموضع.

– أما المعنى الاصطلاحي فتمثل في مجلس الخليفة الذي يضم الوعاظ والناصحين الذين يتكلمون بما رحبت عقولهم

– للمقامة خصائص تميزها عن سائر الفنون الأدبية مثل وجود بطل مكد محتال، احتفاؤها بالسجع وتوخيها الهدف التعليمي.

– للمقامة شخصية بطلة تؤدي معظم الأدوار المنوطة بالشخصيات وهو أبرز شخصية يتميز بالذكاء وحسن استخدام اللغة.

– تتمتع الشخصية البطلة بأبعاد نفسية وجسمية واجتماعية تلائم عملها في الكدية وطبيعتها كشخصية محتاجة، محتالة، مستعطفة.

– المقامة فن أدبي نثري ذو نمط سردي يمكن تضمينه أغراض أدبية أخرى.

– تحتوي المقامة على جانب كبير من الأسجاع والحكم والمواعظ

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب

1–تودوروف تزفيطان، مفاهيم سردية، تر: عبد الرحمان مزيان، ط1، منشورات الاختلاف، الغزوات، 2005.

2 –ابن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب، ط1، القاهرة.

3 –حسن محمد رشدي، أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974.

4 –سلطان محمد جميل، فن القصة والمقامة، دط، منشورات جمعية التمدن الإسلامي، 1943.

5– ضيف شوقي، فنون الأدب العربي الفن القصصي –المقامة–، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت.

6 –عباس حسن فضل، نشأة المقامة في الأدب العربي، دط، دار المعارف، د.ت.

7 –فروخ عمر، الرسائل والمقامات–عبد الحميد الكاتب– بديع الزمان–الحريري– دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط2، منشورات مكتبة منيمنة، بيروت، 1950.

8– كيليطو عبد الفتاح، المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2001.

9 –ابن منظور، لسان العرب، ج11، ضبط نصه وعلق حواشيه: خالد رشيد القاضي، ط1، دار صبح، إديسوفت، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، 2006.

10– الهمداني بديع الزمان، مقامات بديع الزمان الهمداني، شرح: محمد محمود الرفاعي، ط1، مطبعة السعادة، د.ت.